وللكنيسة على جوانبها ست عشرة صومعة أشبه بكنائس صغيرة

ثم خرجنا من حرم الكنيسة لزيارة باقي ملحقات الدير وقيل ان عددها اكثر من مائة وخمسين ما بين مخزن وغرف سكنى ومنافع مختلفة

ترجمة المونسنيور انطون مرقس

المرسل البطريركي اللاتيني والزائر الرسولي في القطر المصري

بقلم الخوري يوسف المشيتي

١

ان تراجم كبار الرجال هي من افضل الوسائل التعليم . واقيد المثاثل للتهذيب . على انَّ الكثيرين من عظماء اهل الارض يجهل الناس حق قدرهم . ويغفل التاريخ ذكرهم كالمترجم الذي توخيت نشر اخباره فرأيتُ ان ابعث هذه البنفسجة العطرة من مدفنها بزوايا النسيان لتنمّ روائحها بين اوراق التاريخ فيُقتدى بمثلها ويُهتدى بتعاليمها

لم اكن اقف عند حدّ معرفتي بالطيب الذكر انطون مرقس ومعاشرتي اياه في اواخر سني حياته . بل استعنت بمن لازمهُ وعاشرهُ من أترابهِ وارفاقهِ مستفسراً منهم عما فاتني معرفتهُ من تفاصيل حياته . مُثنياً كل الثناء على حضرة نسيبهِ السيِّد يوسف مرقس الوكيل البطريركي حاضراً الذي أمدَّني بلمحة وجيزة كتبها حضرة الاب يوسف دعدوش احد تلامذة المترجم في اللغة الايطاليَّة استعنتُ بها بما خفيَ عليَّ من امره

وُلد المونسنيور انطون مرقس في اول اغوسطوس سنة ١٨٣٨ من ابوين فاضلين ينتميان الى اشراف الاسر اللاتينيَّة في القدس الشريف وعرفا بتمسكهما بالدين الكاثوليكي . فربّياه احسن تربية واشرباه منذ صغره حبَّ الفضيلة

والاحسان . ولمّا بلغ اشدّه ادخلاهُ مدرسة الآباء الفرنسيسيّين في القدس حيث تلقّى العلوم الابتدائية واللغة الايطالية

وما كان متصفاً بهِ هذا الفتى الحديث السنّ من مضاء العزم وحدّة الذكاء والانصباب على الدرس أحرزهُ قصب السبق على اقرانهِ . وما تجمّل بهِ من المزايا الحسان كالرصانة والانقياد والمواظبة على الدرس والمثابرة على اتمام واجباتهِ بتدقيق لفتَ اليهِ نظر اساتذتهِ . وعلى الخصوص رئيس المدرسة خوري الرعيّة الذي كان يراهُ امامهُ في الكنيسة مساء صباح جاثياً امام القربان بكل ورع وخشوع . وممّا يُروى عنهُ : ان في احد الايام اعترى والدهُ عارضٌ ثقيل تركهُ وقيذاً بين حي وميت فقالت لهُ والدتهُ : أسرع يا ولدي واستأتِ الينا الطبيب فاندفع انطون في عدْوه لا يلوي على شيء . وعوضاً عن ان يقصد دار الطبيب ذهب توًّا الى الكنيسة واكبَّ على وجههِ امام ايقونة العذراء . واخذ يتوسّل اليها لتهب والدهُ نعمة الشفاء . ثم ذهب بعد ذلك لنداء الطبيب الذي ما عتّم ان اسرع لمشاهدة المريض فوجدهُ معافى . وشدّ ما كان انذهال هذا الفتى لدن شاهد اباهُ يتقلّب في درع العافية بعد ذلك العارض النجاني الثقيل الوطأة فكرَّ راجعاً للحال الى الكنيسة . وشكر العذراء التي اعادت الى والده كمال صحتهِ

فجذا التربية تربية الآباء الفضلاء التي تغرس بقلوب الابناء غراس الفضائل . وتُلقي بافئدتهم بذار الايمان والاتكال على العناية الالهيّة

على انّ نفس هذا الشاب السخيّة أبت إلا ان تنزل ساحة هذا العالم وتتجنّد لخدمة الله والقريب . فكان يشعر بباطنهِ بحركة غير اعتياديّة نحو الدعوة الاكليريكيّة . وكثيرًا ما خاطب والديهِ بهذا الشأن فتمنّعا . اخيرًا لجأ هو عينه الى غبطة البطريرك يوسف ثاركا الجالس حالئذٍ على الكرسي الاورشليمي وباح لهُ بما في نفسهِ من الميل والشوق لتكريس ذاته لخدمة الله . فتلقّى غبطتهُ عواطف هذا الشاب النبيلة بملء السرور والارتياح . واذ لم تكن أُسست المدرسة الاكليريكيّة في ذلك العهد ارسلهُ الى مدرسة الآباء اليسوعيين في غزير

المشهورة مع الشابّ يوسف طنوس بين الاهدنيّ الاصل (١ الناصري المولد الذي كتبتُ ترجمة حياتهِ . وخليل البيتجالي الذي رُقّي فيما بعد لدرجة القسوسيّة وعُرف باسم الخوري يوحنا مرتا (٢ ويوسف اسحق الذي تسنم الدرجة الكهنوتية ايضاً ودعي الخوري سمعان اسحق .

اقام المذكور في مدرسة غزير اربع سنوات مع ارفاقهِ المومـا اليهم تحت ادارة وعناية آباء اجلّاء أدونا بعنايتهم في تهذيب الشبيبة مـا دلّ على سموّ اخلاقهم . وبتفانيهم فيما يؤول لخدمة الله وخير النفوس ما دلّ على صـدق ايمانهم . وبدفاعهم عن الدين والآداب ما دل على غيرتهم السامية . وبنشرهم العلوم بيننا ومطبوعاتهم ما دل على محبتهم خير هذه البلاد التي لا يسعها الّا الاقرار بفضل ابناء يسوع عليها . ولما ان فتح غبطـة البطريرك يوسف ثالوكا مدرسة البطريركية الاكليريكية استدعى اليها الشاب انطون الذي اتم دروسهُ فيها . ورقاه للدرجة الرسـايليّة في ٢١ ك ١ سنة ١٨٦١ وللدرجة الانجيليّة في ٢٠ ك ١ سنة ١٨٦٢ وللدرجة القسوسية في ٣٠ ايار سنة ١٨٦٣ وذلك على جبل الجلجلة حيث تقدّم لاوّل مرّة من مذبح الرب وعاهد الله عهداً ابديًّا في الانقطاع

---

١) اهدن هي احدى مدن شمالي لبنان . تطل عن سطح البحر ١٤٥٠ متراً عـذبة الهواء طيبة المناخ بهيّة الموقع . جميلة المنظر . خرج منها عدّة عيال في اوقات مختلفة وتفرّق شملها . ومن عداد هذه العيال أسرة كاتب هذه الترجمة التي هي احدى فروع اسرة الدوجي كما تصرّح بـذلك الشجرة التي كتبها الطيب الذكر الدوجي عينهُ في اصل عيلتهِ .

٢) كان الاب مرتا عالماً علامة . لغوياً مدققاً . ونحوياً محققاً . فاق اهل زمانهِ في اطلاعـهِ على اوابد وشوارد اللغة العربية وتضلعهِ من آدابها وفنونها كما تشهد لهُ كتاباته النفيسة وتآليفهُ البليغة . عكف على التعليم والتصنيف مدة حياتهِ واجل ما تركه من آثارهِ معجمهُ المحيط الذي به ينتقد ويصحح ويستدرك ما كتبهُ ورواه وسها عنهُ المرحوم بطرس البستاني في محيطهِ . مضيفاً اليهِ نحو عشرة آلاف كلمة مع بيان اصولها وفروعها ومواضعها ومصادرها ومشتقّاتها ومواقعها في الكلام مما لا غنى عنهُ لكل كاتب احبّ التدقيق في كتاباتهِ . ساعدني الحظّ ان تصفحتُ هـذا الاثر الفريد في بابهِ . وبالتُّ في مطالعتهِ وأوغلتُ في البحث والتدقيق في مضامينهِ ومقابلتهِ مع غيره من جنسهِ فوجدتهُ كتاباً فريداً في بابهِ والغاية التي ليس وراءها مذهبٌ لطالب . فحبـذا لو تكلّفت البطريركية الاورشليمية نشر هذا الاثر الجليل بين المطبوعات فتقدّم للغة العربيّة افضل خدمة

لخدمته وخدمة القريب . ومذ ذاك الحين شرع الكاهن الجديد في العمل بكرم الرب فلم تكن تفتر له همة ولم يقعده عمرٌ عن اتمام متطلبات درجته من وعظ وتعليم وعمل الرسالات وانشاء الاخويات وعيادة المرضى وافتقاد المسجونين . وبالجملة كلّ ما يعود لخدمة الله والقريب . فكان مرشدًا ماهرًا في كراسي التوبة . وخطيباً مصقعاً في منبر الخطابة . وديعاً في معاشرته لطيفاً في احاديثه جمع الى حكمة الشيوخ مقدرة الكهولة . ومروّة الفتوة .

وكان غبطة البطريرك يسترسل اليه بامانيه ويتكل اليه صرف جميع المشاكل معوّلًا عليه في كل اموره

ولما كانت مسألة الاقباط الكاثوليك في القطر المصري من اهمّ المسائل التي اشغلت افكار الكرسي الرسولي في ذلك العهد ارسل الطيّب الذكر والاثر البابا لاون الثالث عشر معتمدَين من قبله الى مصر لاصلاح الحال : اولًا السيد دوتلي ثمّ السيّد لودفيكوس بياني قاصد سورية . فلم ينجحا بمهمّتهما . ولم يقويا على اعادة النظام وجمع القلوب المتنافرة . فطلب قداسة البابا من البطريرك الاورشليمي السيّد منصور براكو ان يرسل لتلك المهمة احد كهنته المحنكين فلبى البطريرك طلبَ قداسته وانتقى من بين كهنته السيد انطون مرقس موثرًا اياه على غيره لما عُهد به من الغيرة والحكمة في تدبير الامور ولم يكن السيّد مرقس يتلكأ عن تلبية امر سيّده فجمع حالًا ما قلّ من لوازمه وتوجه الى حيث تدعوه مشيئة الله . ولما بلغ مصر رأى فوق ما كان يتصوّره من الصعوبات . فكان يعالج في الامر شدةً ويقاسي فيه نصباً . ولولا ثقته بالعناية الالهيّة وغيرته على خلاص النفوس لكان ترك مصر ورجع قافلًا الى القدس دون ان يتكلف ما امتنع على غيره . ولم يقع في حبالة امل . لكنهُ كلّما اعتاص عليه امرٌ كان يزداد نشاطاً واجتهادًا . فكان يدعو اليه الكهنة ووجوه الطائفة كل يوم ويلقي عليهم الارشادات الروحيّة والنصائح الخلاصيّة . ويجدّ في ازالة النفور المتأصل بين ابناء الطائفة من زمنٍ مديد . ويتفقد المدارس ويزور النوادي معلّماً مرشدًا . ويحلّ ما تعقّد من المشاكل بحكمته المعهودة . خلا ما كان يشغلهُ من

امر المجاوبة على المراسلات الكثيرة التي كانت تتراكم عليهِ وعلى الخصوص من المراكز العليا

ولم يكن يكتفي بشغل النهار بل كان يصرف جزءاً طويلاً من ليلهِ في المكاتبة والمطالعة . عدا قيامه ايضاً بممارسته متطلّبات حالتهِ الكهنوتيّة من مثل تقدمة الذبيحة الالهيّة يومياً . والتأمل صباحاً والقراءة الروحية وزيارة القربان وصلوة سبحة الوردية وفحص الضمير وتلاوة الفرض الكنسي كما اخبر عنهُ معاشروه انفسهم . وبقي مداوماً على هذه الحال نحو عشر سنوات حتى ظفر بحاجتهِ وأتمّ مهامَّ رسالتهِ طبق رغائب الكرسي الرسولي وطائفة القبط عينها التي كانت تجاهر بالقول ان الانبا مرقس رجل قديس

لم تقف غيرة المترجم عند هذا الحدّ فقط بل كان يجول في الاصقاع المصرية للبشرى بالتجيل السلام ونشر المدنيّة الحقة بين مَنْ حُرموا انوار التعاليم الحقيقيّة كما تنبئنا عن ذلك رحلة العلامة الاب جوليان اليسوعي الى بلاد الصعيد حيث يقول في مقدّمتها

« يجول في تلك الاصقاع خلق كثير من السياح لكن قلّ من يقصد منهم زيارة ما بها من الآثار المهمّة فيترتّب اذاً على سياحتنا هذه فائدة كبرى ولاسيما للمرسلين المبعوث بهم الى القبط الذين في تلك البيداء . وقد كنّا في هذه الرحلة جماعة قليلة رأسها السيّد فرنسيس سوكارو النائب الرسولي في افريقيا الوسطي وبلاد السودان المصرية يصحبهُ السيّد انطون مرقس الزائر الرسولي المتولي على طائفة القبط الكاثوليك . وكان مع السيد سوكارو احد اصحابه الموسيو سنته بوناڤيا المهندس الايطالي المقيم في القاهرة »

وما ادراك ما كانت افكار هذا المرسل الغيور في رحلتهِ هذه . فكانت نار الغيرة على خلاص النفوس ومحبة القريب تتّقد في قلبهِ اتقاداً . فلم يكن يدع فرصة تفوتهُ دون ان يغتنمها للمجاوبة على اماني قلبهِ . فحين وصولهِ لبني سويف وزيارته لاسقفها الانبا يوسف شرع يحادثهُ بامر الدين مبيناً لهُ باسلوب لطيف ما تتطلّبهُ الدرجات الكهنوتيّة من العلم والفضيلة وحبّ التضحية متطرقاً الى الكلام عن وحدة الكنيسة ورئاسة القديس بطرس على باقي الرسل الخ

واما الاسقف فكان يرهف اليهِ سمعهُ مندهشاً من فصاحتهِ ومعجباً بغزارة مادتهِ

وفي اليوم التالي بينا كان يتمم الذبيحة الالهيَّة على مذبح نقَّال في كنيسة دير القديس انطونيوس التي كانت غاصة بجماهير الرهبان الارثوذكس . تلا الانجيل المعين لذلك اليوم وقرأ لهم في اللغة العربية الفصل السادس عشر من بشارة القديس متى الذي فيهِ اقام السيِّد لهُ المجد القديس بطرس رأساً لكنيستهِ . فكان اذ ذاك الرهبان يصغون بشوق وارتياح ويبدون ادلة الرضى والاستحسان

اما امر زيارتهِ لدير القديس بولس زعيم النساك في البرية وحسن استقبالهِ فقد وصفها حضرة الاب جوليان في رحلته بقوله :

«لما وصلنا الى سور الدير كان الليل قد جنّ فشاهدنا رهباناً عديدين ينتظرون قدومنا بالمصابيح الموقدة . وهو اي دير القديس بولس كدير القديس انطونيوس ليس لهُ باب يدخل منهُ بل نافذة في السطح فأُعدّ لنا حبل ضخم لنرفع بهِ الى الدير . فصعد السيد مرقس اولًا ورجانا ان نلحقهُ سريعاً دون ان نبطئ لانتظار الانقال . فتعلقت بالحبل وارتقيتُ فوجدت غرفة المتولي حرفة الاصعاد قد اكتظت بالرهبان وفي ايديهم شموع مضيئة وفي وسطهم السيد مرقس متزملًا بجلل حبرية فاخرة من المخمل البنفسجي المزركش بالذهب . فقال لي : « أنظرتَ كيف البسوني هاته الحلل رغماً عني ولكني رأيت ان الاولى اجابتهم الى رغبتهم واجتهدت في الانتفاع بهذه الفرصة »

ولما وصلتُ البسوني انا ايضاً في عنقي ثوباً عريضاً قرمزيًّا مذهباً ظانين اني انا هو النائب الرسولي في افريقيا الوسطى اي السيِّد سوكارو الذي لم يكن صعد بعدُ ووضعوا عليَّ كذلك حلة كاهن جميلة من اللون نفسهِ . فلما صعد سائر رفقائنا اعطوهم شموعاً وساروا بنا كما يفعل في الزياحات الدينيَّة على النسق الآتي :

مشى اولًا الرهبان الصغار والكهنة بازيائهم العادية وفي ايديهم شموع متقدة . ثم ثلثة رهبان على صفّ واحد حاملين ثلثة صناجق فوقها صليب . وحامل الصليب الاكبر في الوسط . ثم اهل الخورس والمرنمون . واثنان حاملان

مباخر وشرعوا يرنمون بالحان مكرّرة بنسق واحد ووزن واحد غير متغير موقعة على اصوات الصنوج والنواقيس التي يقرعونها بمسامير حديدية ضخمة . وعند كل قطعة كان المبخّران ينحنيان امام السيّد مرقس انحناء بليغاً . ويبخّران ثلثة . والجميع وقت الترتيل يتايلون تارةً ذات اليمين واخرى ذات الشمال

وكانت هذه المظاهر كلها مضادة لهدوّ وتهيّب السيّد مرقس وهو متجلبب الاثواب الحبرية وبيده الصليب الرعاني . وقد قضينا مدة غير يسيرة حتى انتهينا الى الكنيسة ولما بلغ السيّد مرقس الى المذبح التفت واوماً بلزوم الصمت وكلّم الرهبان المنتصبين وقوفاً امامهُ بخطاب رقيق مؤثر وشكرهم عمّا قدموا من الاكرام لكرسيّ بطرس الرسولي الذي هو خادمهُ الوضيع وحضّهم على الاتحاد مع الكنيسة الواحدة القدسة المؤسّسة من سيدنا يسوع المسيح والمفوّضة منه الى بطرس وخلفائهِ من بعده وختم الكلام ببعض تضرّعات اجابوا عليها آمين آمين

فلما فرغ السيّد مرقس من مقالهِ أُخذ باحتفال الى كرسي الاسقف القائم في جانب الرسالة في قسم الكنيسة المحفوظ للكهنة فقط . فلما جلس وبطلت اصوات الترنيم تقدّم احد قدماء الرهبان وتلا بين يديهِ في كتاب الطقس رقيماً على شكل تبتنة ترحيباً بهِ والتماساً لبركتهِ . فاجاب سيادته بكلمات وجيزة مازها انعطاف ومحبة مكرراً القول ايضاً بوجوب الخضوع للحبر الروماني نائب يسوع المسيح . ثم رفع يديه وبارك جميع الحاضرين بالصليب المعدني فانفضّ الرهبان بعد ان لثم كلٌّ صليب الحبر ويده . . .

وقد وقع كلام السيّد مرقس في قلوب كثيرين من الرهبان احسن وقع وطلبوا ان يكلّموه فآل الى فهم على انفراد فقضى هزيعاً من الليل في هذه الاحاديث .»

وقد لخّص الاب جوليان المشار اليه في رحلته المتوّه بها مباحث السيّد مرقس الدينيّة تحت عنوان «مباحث دينيّة» حيث يقول :

« ان السيّد مرقس اغتنم الفرصة مدة هاته الرحلة لاجراء مداولات كثيرة بشأن الكنيسة وطيبتي سيدنا يسوع المسيح مع اسقف بني سويف ورهبان الدير واهتها المباحث الجامعة لكلّ المباحث التي صارت في دير القديس

انطونيوس في غرفة النائب يوم رجوعنا

اما السيد مرقس فكان حينئذٍ جالساً وسط المقعد العريض والرهبان جاثمون على الارض كحلقة حول كل الغرفة . وقعد النائب من عن يمين سيادته والمدبر من عن يساره . فكانت الجلسة اذ ذاك حافلة وقد ظهر السيد مرقس كأنهُ الراعي الحق آتياً بين نعاجهِ التي سلبها السارق وداعياً اياها اليهِ . قال: « ان السيد المسيح لم ينشئ الّا كنيسة واحدة ورئيساً واحدًا وهذه الكنيسة لا تنحصر في ثلث او اربعماية الف نفس تسكن على ضفاف النيل بل هي كاثوليكية اي جامعة ورئيسها لا يقيم في القاهرة بل في رومة وليس هو بخليفة القديس مرقس بل خليفة القديس بطرس هامة الرسل . وآباء المجامع المسكونية الثلثة التي تذعنون لها : مجامع نيقية وقسطنطينية وافسس الاولى . إنما كانوا من هاته الكنيسة الحقيقية . وكانوا يذعنون بان رئيسها هو خليفة القديس بطرس وخير شاهد على ذلك انما هي القوانين التي رسموها . والقديسان انطونيوس وبولس اللذان تكرمونهما اجلّ الاكرام كابوين لكما كانا متحدين مع القديس اثناسيوس في الطاعة والخضوع للحبر الروماني

وانتم ألا تقولون في القداس يوم عيد القديس بطرس هذه الترنيمة المعلنة رئاستهُ وسيادتهُ وهي: «السلام على ابينا بطرس ذي اللسان الذهبي معلم الامم . السلام على ابينا بطرس الذي نال سلطان حلّ الخطايا وربطها . السلام على بولس الذي انتشر كلامهُ في اقاصي المسكونة »

ثم ألا يقول كتاب طقسكم في موضع آخر ان الله سلّمه عمل يديهِ ومفتاح ملكوت السماوات . ويمكنني ايضاً ان اذكركم بالصلوة التي تتلونها في عيد تدشين كنيسة العذراء في قيسارية حيث يقال : « ان المخلص نزل على الارض محمولاً على اجنحة الشاروبيم ومكتنفاً من رسلهِ ورسم على التراب رسم الكنيسة وهيئة بنائها . ثم وضع يديهِ على رأس ابينا بطرس واقامه رئيساً لطغمتهِ في كل الارض ومنحهُ سلطان الحلّ . وحينئذٍ صار فرحٌ عظيم في السماء والارض والجميع هتفوا : « مستحق مستحق مستحق »

ثم كلف السيد مرقس النائب وسائر الرهبان ان يعرضوا لهُ ما يداخلهم في

ذلك من الريب باسطين لهُ مشاكلهم بكل حرية فهو مستعد لاجابتهم . فشرع ابونا حنا يقدم تلك الاعتراضات العتيقة المذكورة في كتب اللاهوت . ولا شك بانهُ كان قد استعدّ لها . إلا ان السيد مرقس كان يجيب عن كلٍّ منها بكلام وجيز بغاية البساطة والسلطة متذرّعاً غالباً بايراد بعض مقابلات بشرية وتشبيهات طبيعيَّة منها قولهُ لهُ مرةً :

« انتم تقولون ان القديس بطرس ليس رأساً للرسل لان القديس بولس آخذه مرة . فـدعوني اسألكم : اذا اتفق يومـاً انكم استحسنتم بان توثبوا ولو بعنفٍ الفرموس بولس . افيمكننـا ان نستنتج من هـذا التأنيب العنيف ان الفرموس بولس ليس رئيساً عليكم » ؟

فبهت ابونا حنا ورضخ لهذا الجواب فلم يتنبس ببنت شفة . واخذ الرهبان يرددون اعتراضات صبيانيَّة محضة كان يدحضها السيد مرقس بايجاز

وكان النائب لا ينطق الا قليلًا بل يصغي كل الاصغاء وامارات وجهه تدلّ على التكدر . على ان السيّد مرقس سأله اكثر من مرة هل هـذه المجادلات تزعجهُ وقال لهُ انهُ مستعد لقطعها اذا كانت تكدر خاطره ولو يسيراً

فاجاب النائب : كلا . بل كل ذلك مما يهمني كثيراً ومع ذلك فقد الجأتهُ الحدة الى ان يقاطعهُ معترضاً عليهِ بقولهِ :

« انتم تذهبون الى ان كل من لا يعمل رغائب البابا فهو مشجوب »

فاجاب السيّد مرقس : انا قلت انهُ يكون مشجوباً ذلك الذي لا يطيع يسوع المسيح ونحن ان يسوع المسيح امرنا بان نطيع البابا في ما يتعلق بالايمان والآداب فاستخرج النتيجة انت »

ومن جملة اعتراضاتهم « ومع ذلك نرى الرسل كانوا يسافرون ويبشرون ويسوسون كنائسهم دون ان يلتمسوا الاذن في هذه كلها من القديس بطرس »

وقد تعب السيّد مرقس كثيراً باذلًا جهدهُ في اقناعهم بان افكارهم وتخيلاتهم هي وهمية وانه حلوٌ وسهل تصرف الاب الاقدس مع الاساقفة والكهنة الذين يبذل لهم كل الوسائل الممكنة لسياسة النفوس التي فوضت اليهم اما مسألة وجود طبيعتين في سيدنا يسوع المسيح فكان من المستحيل ان

يتداول بها لاهوتيًا او يبحث عنها خصوصاً لان هؤلاء المشاقين المساكين هم بعيدون كل البعد عن كل الاشياء الفلسفية فلا يتفكرون عن ان يخلطوا الطبيعة بالاقنوم وكيف كان الامر يعدّون ذلك مسألة ثانوية

قال احد المدبرين كانهُ ينطق باسم الجمهور : « لا بأس ان قيل في المسيح طبيعة او طبيعتين فيكفي للخلاص الايمان بلاهوت المسيح »

فلما سمع السيّد مرقس هذا الجواب بهت متحيرًا وفهم انهُ يجب قطع سياق الجدال . وكان سيادتهُ يخاطبهم بهدوء تبدو على وجههِ سمات الهيبة والوقار . وكان يظهر من كلامهِ ان الحق يسود على الضلال والنور يحترق جيوش الظلمة

وقد دارت محادثات خصوصية وَليت هذه الاجتماع وامتدت هزيماً من الليل وقصارى الكلام ان الاعمال الفكرية والاشغال الشاقة التي كان يتكلفها السيد مرقس سنين طوال قد نهكت جسمهُ وأثرت في صحتهِ اشدّ التأثير فاعتراه بسبب ذلك داء الرجفة فكان ويشهد الحق شهيد غيرتهِ ومحبتهِ للقريب . واضطرّ اذ ذاك أن يترك ساحة الجهاد مرغماً والانزواء بغرفته في مسقط رأسه في دار البطريركية الاورشليمية . ومن اجلى الفضائل التي تحلى بها شخص السيد مرقس هي تسليمهُ الكامل لارادة الله . ومن اسمى الفضائل ايضاً التي سطعت بهِ هي صبرهُ واحتمالهُ ما المّ بهِ فلم يفه قطّ بكلمة تذمّر مدة حياته كلها . ولم يظهر قط كاسف الوجه ساهمهُ بل لبث داغاً طلق المحيا تبرق اسارير وجههِ بشرًا الى ان نقلهُ الله الى دار كرامتهِ جزاء امانتهِ . اما صفاتهُ فهي اكثر من ان تحصر: اللطف والمؤانسة والشهامة والترفع عن الدنايا واين الجانب والاناة الى غير ذلك من الاخلاق الحميدة والخصال الحسان التي حبّبت اليهِ القلوب وخلدت لهُ ذكرى الجميل وطيب الاحدوثة

٢

اننا في سياق ترجمة السيد مرقس لم نأتِ على ذكر ما امتاز بهِ من الفضائل التي هي اهمّ ما يتحلّى به كاهن الله واهم ما يذكر في ترجمةٍ عيدةً وذكرى

فرأيت من المناسب ان اتكلم عنها بنوع خاص بعد استيفاء الكلام عن اطوار حياته

امتاز هذا الكاهن الفاضل بتواضعه فقد كان خافض الجناح متجافياً عن مقاعد العجب الخيلاء . يعتزل عن الكرامات ويحتفي بدعة وايناس لما كان يُلقى عليه من النصائح والملاحظات . تبدو على وجهه ملامح السذاجة مع انهُ كان من جهابذة اهل النظر غزير المادة واسع الاطلاع . فكان يعتبر ذاتهُ احقر الناس واقلّهم معرفةً وعلماً مما زاد القوم ثقةً به واعتباراً لفضائله . وكان رحمه الله يتولى هو عينهُ كناسة غرفته دون ان يكلف احداً هذه الخدمة

اما وداعتهُ فنسطرها لهُ بمداد الاعجاب ونعدّها من اجمل فضائله لانها ثمرة جهده واكليل جهاده : وُلد السيّد مرقس دموي المزاج جافي الطبع سريع الغضب لكنهُ ما لبث ان عالج هذه الادواء مدة طويلة بمراقبته ذاتهُ والمداومة على الصلوة وممارسة الامانات حتى بلغ بثباته وجده المتواصل مبلغاً عظيماً من رباطة الجأش ازاء ما كان يحدث لهُ من الكوارث . والتسلط الكامل على حركات نفسه وسكناتها مما جعلهُ ان يصبر على ما يتأتى له من النوائب بكل اناةٍ ويحتمل دون حدّة ما يداهمهُ من البلايا وان يطابق ارادته مع ارادة الله في كل امر . حتى خال الذين كانوا من اقرب الناس اليه انه طبع على الدعة وفطر على سهولة الخلق والضعة . فلم يرهُ احدٌ قط مقطب الوجه عابساً بل باسم الثغر حسن البشر مع حلمٍ ووقار وتؤدة ورجاحة . رغماً عن تراكم اشغاله وما وكل الى عنايته وتدبيره من الامور الخطيرة

اعتاد اهل فلسطين ان يلجأوا في كل امر الى البطريركية اللاتينية وكان السيد مرقس موجباً الاهتمام بهم وصرف ما ينتابهم من المشاكل . فكان يتنازل للمجاوبة على جميع ما يلقى عليه من المسائل وحلّ ما يعرض لهم من المعضلات مما امال اليه كل القلوب وادهش سلوكه جميع اهل القدس على اختلاف نحلهم وتفرّق مللهم وعلى الخصوص الفقراء الذين كانوا يرون به اباً شفوقاً يرأف بهم ويعطف عليهم

ولما ذهب السيد مرقس الى الاستانة لبعض امور تتعلق برسالات البطركية

عين غبطة البطريرك احد الكهنة ليقوم مقامهُ لدى الطوائف المسيحية . بيد انَّ هذا الكاهن لم يكن متخلقاً باخلاق سلفهِ فلم يلبثوا ان لاحظوا الفرق بين السلف والخلف . فكانوا يترقبون رجوع سيدهم مرقس وقد رهقهم من امر غيبتهِ ما عيل بهِ صبرهم

وعندما كان في الاسكندرية بصفة زائر رسولي اتاه احد اشراف الملة القبطيَّة واخذ يُطيل عليه لسانه ويندّد بهِ بغاية الجرأة والقحة . اما السيد مرقس فكان يقابلهُ باللطف والايناس دون ان تبدو على وجههِ امارات الغضب والحدَّة . وفي اليوم التالي قال لخادمه البس ثوبك الرسمي وهيّا بنا لزيارة السيد الذي جاءنا امس . فبهت الخادم وقال لهُ على الفور : أوَ نسيت ما كان من امره امس ؟ وهل يستأهل هذا السفيه ان تزورهُ ؟ فاجابهُ الكاهن الفاضل : نعم نعم هذا ما يتطلبه خير القريب ويوجبهُ علينا الدين المسيحي . وما عتما ان اتجها الى دار ذلك السيد الذي غضَّ الخجلُ طرفهُ لدن مشاهدة الزائر الرسولي آتياً لزيارتهِ فاستقبلهُ بما ليس بعدهُ من اللطف والمؤانسة أسفاً ممتعضاً مما صدر منهُ بحقهِ ومذ ذاك اليوم اضحى من اخلص اصدقائه

بمثل هذه العدَّة اي التواضع واللطف والاناة كان هذا الكاهن الفاضل يمهّد العقبات فيذوّل ما استصعب ويذلل ما استعصى مما جعل لهُ في قلوب اهل مصر اسمى منزلة وطلبوا اليهِ ان يكون بطريركاً عليهم فاعتذر اليهم بعدم اهليتهِ وتمنَّع عن قبول التاج الاسقفي اتضاعاً

اما محبتهُ للقريب وغيرتهُ على خلاص النفوس فحسبنا هنا ما قالهُ ذات يوم السيد يوسف قالركا البطريرك الاورشليمي عنه : « آتوني بعشرة كهنة نظير الاب انطون مرقس وانا اضمن لكم هداية جميع الشعب الفلسطيني الى الدين الكاثوليكي »

وبالواقع ان قلب هذا الكاهن الصالح كان ملتهباً بنار الغيرة الرسولية فلم يكن يني قط عن القاء الارشادات والنصائح الخلاصية . وكلّ ما يعود لصالح النفوس وخير القريب . ومن رآه وشهد ما كان من امره مع ذلك الكاهن التاعس الذي انحرف عن جادَّة الصدق واتَّبع تعاليم مغايرة لعلم مفاعيل وقوة

الغيرة المسيحية . فلم يكن يفتأ عن التردد عليهِ والقاء الارشادات والنصائح واقامة الصلوات . وممارسة الايمانات وبعض اعمال تقشفيَّة حتى ظفر عليهِ واقبل بهِ لحظيرة الخراف الامينة

وبالجملة كان الاب مرقس ملجأ اليتيم وغوث الملهوفين . كثيرًا ما كان يقرع ابواب اهل الثروة ويحضّهم على التصدق على الفقراء والبائسين

اما صبرهُ وطول اناتهِ واحتمالهُ فكان مما يتمثَّل بهِ . وقد ظهرت فيهِ فضيلتا الصبر والاحتمال باجلى مظاهرهما بمرضهِ لدن اختبره الله باشدّ المحن فان جهاده واتعابهُ سببت لهُ داء الرجفة فكان يتعذّر عليهِ اتيان اي عمل كان دون مساعدة شخص آخر . ومع هذا كلهِ لم يكن يشكو قط ولم يتذمَّر ولم ينقطع عن مقابلة الذين كانوا ياتونه للاسترشاد وطلب المشورة بل كان دائمًا طلق المحيَّا بشوشًا يُصغي للجميع ويلقي عليهم الارشادات والنصائح الخلاصية . وبالحقيقة ان من عاشر السيد مرقس ولحظ ما كان متصفًا بهِ من الخلال الفريدة والمزايا الحسان وعلى الخصوص صبره واحتماله في مدة مرضهِ لجاهر بالقول : إن هذا بشرًا بل ملاكًا سماويًا

ومن فضائلهِ دعته التي كان يكتسي بها نفسهُ عند حركة الاميال النفسانيَّة . ومسالمته التي جعلته ان يغضي على الاذى ويغفر لمن حمل عليهِ حقدًا محتملًا اساءتهم

ومما لا مرية فيهِ ان السيد مرقس كان مثالًا حيًّا للكاهن المسيحي : جارًا بايمانهِ ، ثابتًا برجائهِ ، صادقًا بمحبتهِ ، امينًا باقام واجباتهِ ، طاهرَ الذيل عفيفًا ، صبورًا على المكاره ، وديعًا في إبّان الشدة . والفضيلة الخاصة التي عرفناها بالسيد مرقس هي فضيلة التسليم المطلق للارادة الالهية دون بحث وتفلسف . وقد تبيّنت هذه الفضيلة بشخص آخر تجلّت بهِ باجلى مظاهرها يغتفر لي المقام ذكر اسمه (١ تيمنًا وعبرة وذكرى

ومن مميزات هذا الكاهن الفاضل انهُ كان اديب المجلس . كثير الاحتفاء بزائريهِ ، حرّ الضمير ، صادق اللهجة ، عفيف النفس ، راغبًا من حطام الدنيا

(١) غبطة الاب المحبوب رجل الفضيلة والفضل السيد الياس بطرس الحويك البطريرك اللبناني

واجادها . ذكيّ الفؤاد . دقيق النظر في المسائل العقلية

اما مزيّتهُ العلميَّة فكان لها نصيبها من الشهرة فقد تنقّى من العلوم اللسانية اللغة العربية والفرنسية والايطالية واللاتينيَّة وقد برع في اوابدها وشواردهـا واتقن آدابها وفنونها كما تشهد لذلك كتاباته وخطاباته في اللغات المذكورة . وخلا العلوم اللسانية أحكم العلوم العقلية السامية كالفلسفة والمنطق واللاهوت النظري والفقه الكنسي والمدني والحق القانوني وغير عاوم كعلم التاريخ والكتاب المقدس الخ

وختام القول عاش السيّد مرقس ٦٨ سنة فكانت سنو حياته الكهنوتية سلسلة افعال خيرية ومحامد وفضائل مسيحيَّة . وقـد شاء الله ان يشركهُ وهو على الارض في اتعابهِ وآلامهِ في اواخر حياته بان امتحنهُ بداء الفالج المزمن الذي احتمل اوجاعه ومشقاتهُ نحو ١٤ سنة بصبر واحتمال وتسليم دون ان تبدو على وجههِ امارات الغضب والحزن او أن يتلفظ بكلمة تذمر او تمرمر منذ مـا عدهُ الـداء الى آخر نسمة من حيـاته . وما كان أعـذب ما يلقيهِ عليَّ من الارشادات والنصائح لدن كنتُ انا أتشكى من حالتهِ المؤثرة فكان يقول لي ووجههُ يتدفَّق بشرًا : « ليس من العدل يا ابتِ ان نتذمَّم نحن الخطأة ويسوع الطهارة والقداسة بالذات لم يصعد الى حيث كان اولًا الَّا بعد صعوده على سلّم الصليب . ابن الله دون استيهال من قبلي قد شاء ان يشركني في قليل من آلامهِ . هي محبة الله الخاصة التي افتقدتني بها استعذبه من اوجاعي وآلامي مجاوبةً على هذه المحبة » . . . .

وعند ما كنا نجتمع في الدار البطريركية نحن معاشر الكهنة لعمل الرياضة الروحيَّة السنوية كان مرشد الرياضة الروحيَّة يقدّم لنا مثال السيد مرقس باثناء تكلمه عن فضيلتي الصبر والاحتمال . وكثيرًا ما سمعتُ الطيب الذكر والاثر السيد لودوفيكوس بياضي يُجمل الثناء على فضائل هذا الكاهن القديس . ولم ازل اذكر ما قالهُ لي احد الايام لدن كلفني ان اتلو عليهِ اي على السيد مرقس فرضهُ الكنسي واقرأ لهُ بعض الجرائد والمجلات . « المونسنيور مرقس هو رجل قديس » .

مات السيد مرقس ميتة الابرار الصالحين مخلفاً لاخوتهِ الكهنة اجلى ذكر وافضل تعليم وأوفى مثال على حياتهِ الكهنوتية في ٢١ شباط سنة ١٩٠٦